

## بسم الله الرحمن الرحيم

### الإنسان والقدر

الإنسان هو المخلوق الأول، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ والإنسان هو المخلوق المكرم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ والإنسان هو المخلوق المكلف، مكلف بعبادة الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وما كلفنا ربنا أن نعبد إلا وقد أعطانا مؤهلات هذه العبادة، ومقومات هذا التكليف، من مقومات التكليف ؛ الاختيار، أنت مخير، وعقيدة الجبر أن تتوهم أن الله أجبرك على أفعالك، فلو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو أنه تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يُطع مُكرهاً. مثلٌ للتقريب: مديرٌ مدرسة في أول يوم للعام الدراسي جمع الطلاب في الباحة، وتلا على الطلاب أسماء الناجحين في آخر العام مقدماً، وأسماء الراسبين، هل يستطيع الطالب أن يدرس؟ هذا مصيره، فلا الذي نجح سيدرس، ولا الذي رسب سيدرس. قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فهو إما شاكراً وإما كفوراً، لأنه مخير. ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ هل يستطيع الراكب في المركبة أن يخاطب الراكب في المقعد الخلفي، ويقول له: خذ اليمين، أي يمين؟ حدث السائق. على من يعود الضمير هو؟ إنك إن أعدته على الله فإنه ينشأ في الآية تناقض: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ ليس الأمر بيدي، ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ﴾ الإنسان مُوَلِّيَهَا، باختياريه هذا. أنا لا أبالغ، هذا الموضوع أعده أخطر موضوع في العقيدة، ولمجرد أن تتوهم أن كل شيء منته، الشقي شقي، والسعيد سعيد، ولا أمل، ولم العمل؟ ولم الأمر أساساً؟ ولم النهي؟ لو قسنا عرض كتف إنسان قد يكون ثلاثة وستين سنتيمتراً وثمانية ميليمترات، وبيننا جدارين، الفراغ بينهما ثلاثة وستون سنتيمتراً وثمانية ميليمترات، فإذا سار هذا الإنسان بين الجدارين فإن الجدار الأيمن يلامس كتفه الأيمن، والجدار الأيسر يلامس كتفه الأيسر، ثم قلنا له: رجاءً خذ اليمين، هل هناك يمين؟ والطريق ذو الممر الإجباري، ولا مسافة للاختيار هل الأمر له معنى؟ لمجرد وجود الأمر في القرآن الكريم، ولمجرد وجود النهي في القرآن الكريم فأنت مخير، ولو لم تكن مخيراً لما كان معنى إطلاقاً للأمر والنهي. ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ أما الآية الأصل في هذا الباب أن الإنسان مخير: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

لو أن الله أراد أن يؤمن جميعاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ لو شاء ربك لهدى الناس جميعاً، العملية سهلة جداً، الهدى القسري سهل جداً، لكن لا يكون هذا الهدى مسعداً إطلاقاً.

تصور وقد يكون هذا المثل طريفاً: لو أن كل إنسان نظر إلى فتاة يفقد بصره، ماذا يفعل الملحدون، يعضون البصر، الملحد يخاف على عينه، أساساً الأقوياء يطاعون هكذا، أقوياء الأرض وطغاة الأرض يطاعون مئة بالمئة، هل هذه الطاعة طوعية؟ إنه مقهور مجبور، ولو أن الله أراد أن يجبرنا على الطاعة فالقضية سهلة جداً، لكن هذا الإجبار على الطاعة لا قيمة له إطلاقاً، لا يقدم ولا يؤخر، ولا يسعد ولا يرقى بالإنسان، الذي يرقى بالإنسان أن يأتي الله مختاراً، أن يأتيه طائعاً، أن يأتيه بمبادرة منه، أن يأتيه عن محبة، كأن الله عز وجل أراد أن تكون العلاقة بينه وبين عباده علاقة حب: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. أنت مخير، ولولا أنك مخير فلا قيمة لعملك إطلاقاً، ولو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً. سأل رجل الإمام علياً رضي الله عنه: >> أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء الله وقدره؟ قال: ويحك، لو كان قضاء لازماً وقدرًا حاتماً إذا لبطل الوعد والوعيد، ولانتهى الثواب والعقاب، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً <<. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي يا عبادي، أنتم تزعمون أنني أجبرتكم على أعمالكم، لو شئنا أن نلغي اختياركم، لو شئنا أن نلغي تكييفكم، لو شئنا أن نلغي هويتكم، لو شئنا أن نلغي أنكم المخلوق المكلف، لو شئنا أن نلغي حمل الأمانة لما أجبرناكم إلا على الهدى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا...﴾ ولكن أعمالكم ليست من إجبار الله لكم، بل من اختياركم، ولذلك سوف تحاسبون عليها، وتدفعون الثمن باهظاً: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ولكن لا بد من حقيقة، وهي أن الله يعلم، يعلم ما سيكون علم كشف لا علم جبر.

الإيمان أن تطوّر عمك، أن تتميّ اختصاصك، أن تتميّ خبرتك، الإيمان أن تبحث عن كل ثغرة في حياتك، بعد ذلك تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، بعد أن تستنفذ كل الجهود تستسلم لقضاء الله وقدره، الاستسلام لقضاء الله وقدره يكون بعد أن تستنفذ الأسباب، وإلا يمكن أن أقول، وأنا لا أتورع عن أقول: هناك من الفقراء فقر الكسل، عمله غير متقن، مواعيده غير مضبوطة، بضاعته سيئة جداً، ليس له اهتمام، ولا إنجاز، ولا متابعة، ولا حسابات دقيقة، طبعاً سيفتقر، هذا فقر الكسل، إياك أن ترى أن هذا الفقر من الله عز وجل، هذا من فعل نفسك، هذا فقر الكسل، الله ما كتب لي رزقا، قل: أنا مقصر، فنفر الناس من هذا العمل، فانصرفوا عني إلى غيري، هذا فقر الكسل. لكن هناك فقر القدر، إنسان امتحنه الله بعاهة، هذه العاهة تحول بينه وبين أن يكسب رزقا وفيرا، هذا فقر القدر. وسيدنا الصديق افتقر، لكن افتقاره كان افتقار الإنفاق، يا أبا بكر، ماذا أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله، فهناك فقر الكسل، وهناك فقر القدر، وهناك فقر الإنفاق، فقر الكسل صاحبه مذموم، وفقر القدر صاحبه معذور، وفقر الإنفاق صاحبه محمود. سيدنا عمر رأى مع رجل جملاً أجرب قال: >> ما تفعل يا أبا العرب؟ قال: أدعو الله له، قال: هلاً جعلت مع الدعاء قطراناً؟ << خذ بالأسباب. إياك أن تفهم القضاء والقدر أن نتائج أخطائك هي

قضاء وقدر، نتائج أخطائك جزاء التقصير، والقضاء والقدر حينما تأخذ بكل الأسباب، وتتوكل على رب الأرباب، والذي يأتي بعد هذا هو القضاء والقدر.

الحقيقة الدقيقة أنك مسير ومخير، بماذا أنت مسير؟ من منكم عرضوا عليه أن يكون ذكر أو أنثى، فاختار أن يكون ذكراً أو أنثى، لا أحد، أنت مسير في كونك ذكراً أو أنثى، أليس كذلك؟ أنت في هذا مسير، من منكم اختار أمه وأباه؟ وأنت مسير في أمك وأبيه. من كان مخيراً في مكان ولادته؟ وأنت مسير في مكان ولادتك. ونحن جميعاً وُجدنا في القرن العشرين وجدنا، وبعد مئة عام لا أحد من الحاضرين على سطح الأرض، وقبل مئة عام ما لا أحد في كل هذا اللقاء الطيب كان على سطح الأرض، أنت مسير في زمن ولادتك، مسير في كونك ذكر أو أنثى، في أمك وأبيك، في مكان ولادتك، في زمن ولادتك. أنت ذو قامة مديدة، هذا شيء رائع، هل كنت مخيراً فيها؟ أنت ذو قامة ليست مديدة، هل أنت مخير؟ أنت لونك أبيض، وإنسان آخر لونه أسود، هل هو مخير؟ شكك، لونك، خصائصك، عندك سرعة بديهية، عندك ذاكرة قوية، عندك قوة فهم، عندك محاكمة دقيقة، فخصائصك، وقدراتك أنت فيها مسير. أما أخطر ما ينبغي أن نعلمه في موضوع التسيير أن الذي ساقه الله إليك، أو الذي أقامك الله فيه هو أفضل شيء يمكن أن يكون مسعداً لك، وحافظاً لك، لذلك البشر جميعاً يوم القيامة، وقد كشف لهم الغطاء يلخصون علاقتهم بالله بآية تقول: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا معنى بعض الأقوال: لو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، أنت مسير بكونك ذكراً أو أنثى، بأمك وأبيك، في مكان ولادتك، في زمن ولادتك، في خصائصك.